مواقف المؤمنين والكفار من القرآن
في ضوء القرآن

إعـداد

د. عبدالحميد بن عبدالرحمن السحيباني

الأستاذ المساعد بكلية الملك فهد الأمنية - الرياض

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبـارك علـى نبينـا محمـد وآلـه وصـحبه أجمعين. وبعد..

فهذا بحث ميسر في بيان مواقف المؤمنين، والكفـار مـن القـرآن الكـريم نـرى فيـه الإذعان للحق، والتسليم للشرع، والخضوع والخشوع من قبل المـؤمنين ونـرى فيـه كيـف يواجه الكفار شرع رب العالمين بالعناد والاستكبار والصـدود عـن الحـق، والإعـراض عـن النور..

إنها دروس ومواعظ من الله - تعالى - لعباده، يرشـدهم فيهـا مـن خـلال عـرض الموقفين المتباينين إلى وجوب سلوك طريق المهتدين مـن المـؤمنين، والتحـذير مـن الانتكـاس باتباع سبيل أتباع الشياطين، فمن آمن واتبع الحـق كـان مـن الفـائزين الآمـنين في الـدنيا والآخرة، ومن أعرض عن الحق وصد عنه كان مـن الهـالكين النـادمين هنـاك في الآخـرة، ولات ساعة مندم.

قسمت البحث إلى بحثين هما: مواقـف المـؤمنين مـن القـرآن، ومواقـف الكفـار..

وجعلت تحت كل مبحث ما يناسبه، وسلكت في بحثي منهج التفسير الموضوعي، أما الجوانب التحليلية فلم أتعرض لها إلا بما تقتضيه طبيعة البحث، وحرصت على اختيار المصادر الأصلية في البحث، واجتهدت في ربط الموضوع بقضايا العصر والواقع الذي نعيشه؛ ليكون أكثر نفعاً، وأقرب للقبول، والله ـ تعالى ـ أسأل أن ينفعني والمسلمين به، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

موقف المؤمنين

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: التصديق.

المبحث الثاني: الخشوع والبكاء والاتعاظ.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان.

المبحث الرابع: وصف القرآن بالخيرية.

المبحث الخامس: العمل بالقرآن.

المبحث الأول : التصديق

التصديق بالقرآن المنزل من عند الله – عز وجل – أحد المواقف التي يقفها المؤمنون بالله – عز وجل – تجاه القرآن، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. والله – عز وجل – قد ذكر ذلك في القرآن، وأثنى على نبيه محمد ﷺ وأمته بسبب تصديقهم بالقرآن، قال سبحانه: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون..} [(١)]، والمراد بذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين معه قد أقروا وصدقوا بما أوحي إلى النبي ﷺ من القرآن، وما فيه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وأمر ونهي، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها[(٢)] ، وقد أخرج الحاكم في مستدركه [(٣)] عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: لمّا نزلت هذه الآية على النبي ﷺ : {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون} قال النبي ﷺ: "وأحق له أن يؤمن".

وهذا الذي قرره الله – عز وجل – في الآية الكريمة ثناء عظيم من الله – تعالى – على نبيه ﷺ والمؤمنين كما يشهد بذلك ما رواه حكيم بن جابر قال: لما نزلت {آمن الرسول} قال جبريل للنبي ﷺ : "إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسَلْ تعطه" [(٤)] .

وهذا دليل على أن الآية الكريمة شهادة وتنصيص من الله – تعالى – على صحة إيمانه ﷺ والاعتداد به، وأنه جازم في أمره غير شاك فيه. [(٥)]

وإن إيمان المؤمنين وتصديقهم بالقرآن دليل على تصديقهم وإيمانهم بالآخرة التي يحشر فيها جميع العباد، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال الله عز وجل: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون} [(٦)] .

فبين الله – عز وجل – ههنا أن من صدّق بالآخرة وقيام الساعة

والمعاد خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظـر والتـدبر حـتى يـؤمن بالقرآن [٧] ، وإنما يجحد به وبما فيه ويكذبُ أهـل التكـذيب بالمعـاد والجحـود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمـل بمـا فيـه ثوابـاً، ولا يخـاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقاباً. [٨]

الإيمان بالقرآن أصل الإيمان

ولما كان الإيمان بالقرآن والتصديق به بهـذه المثابـة العظيمـة مـن تنويـه القرآن بذلك فلا غرو أن يكون الإيمان بـه هـو أصـل الإيمـان، قـال شـيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ: "ولهذا كـان أصـل "الإيمـان" الإيمـان بمـا أنزله، قال ـ تعالى ـ: {ألم. ذلك الكتاب لا ريـب فيـه هـدى للمـتقين.. إلى قولـه: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنـزل مـن قبلـك} [٩] ، وفي وسـط السورة: {قولوا آمنا بالله وما أنـزل إلينـا ومـا أنـزل إلى إبـراهيم} [١٠] ، وفي آخرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون} [١١] ..

ولهذا عَظُم تقرير هذا الأصل في القرآن، فتـارة يفتـتح بـه السـورة إمـا إخباراً كقولـه: {ذلك الكتاب}.. وإمـا ثنـاء بإنزالـه كقولـه: {الحمـد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل لـه عوجاً} [١٢] ، {تبـارك الـذي نـزل الفرقان على عبده} [١٣] .

وأما في أثناء السور فكثير جداً" [١٤] . أ.هـ.

الإيمان بالمتشابه

ومن مواقف المؤمنين تجاه القرآن أنم يؤمنـون بالمتشـابه منـه، وهـو مـا كان معناه ملتبساً على الأفهام، مما تشابت ألفاظه، واحتمـل صـرف صـارفه في وجوه التأويلات باحتماله المعـانى المختلفـة [١٥] ، وذلـك نحـو قولـه ـ سبحانه ـ: {فلا أنساب بينهم يؤمئذٍ ولا يتسـاءلون} [١٦] فإنـه قـد يلتـبس المعـنى إذا جـاء قولـه ـ سبحانـه ـ: {وأقبـل بعضـهم علـى بعـض يتساءلون} [١٧] فالمؤمنون، بل الراسـخون في العلـم يؤمنـون بهـذا المتشـابه، وزيادة على ذلك فهم يعلمون معناه، فيقولون هنا: المعـنى: فـلا أنسـاب بينـهم

في النفخة الأولى، ولا يتساءلون، ثم في النفخة الثانية: أقبل بعضهم على بعض يتساءلون [18] .

ولا يجوز أن نقول إن الراسخين في العلم يؤمنون بالمتشابه ولا يعلمون معناه، لأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالإيمان لم يخص الراسخين، بل قال: والمؤمنون يقولون آمنا به، فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به، فلما خص الراسخين في العلم بالذكر عُلم أنهم امتازوا بعلم تأويله، فعلموه لأنهم عالمون، وآمنوا به لأنهم يؤمنون، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف، وقال عقيب ذلك: {وما يذكر إلا أولوا الألباب} وهذا يدل على أن هنا تذكراً يختص به أولو الألباب.

ونظير هذا قوله في الآية الأخرى: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} [19]، فلما وصفهم بالرسوخ في العلم وأنهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين. فلوا أريد هنا مجرد الإيمان لقال: والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به كما قال في تلك الآية، لمّا كان مراده مجرد الإخبار بالإيمان جمع بين الطائفتين. [20]

وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن، فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب، وهي فتنتها به، ويطلبون تأويله، وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء، بل هذا لأجل الفتنة، وكذلك صُبيغ بن عسل [21] ضربه عمر لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة، وقد اعترف صُبيغ نفسه بأن ضرب عمر له أدّبه، تقول الرواية: "فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنتُ أجد في رأسي.[22]

ومثل ذلك مَنْ يورد أسئلة وإشكالات على كلام الغير، ويقول: ماذا أريد بكذا، وغرضه التشكيك والطعن فيه، ليس غرضه معرفة الحق.

وأما مَنْ سأل عن المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض لـه من الشبه وهو عالم بالمحكم متبع لـه ، مؤمن بالمتشابه، لا يقصد فتنة، فهذا لم يذمه الله ـ عز وجل ـ، وهكذا كان الصحابة يقولون، مثل الأثر الذي رُوي عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: يقرأ القرآن رجلان، فرجل لـه فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس، فما تبين لـه منه عمل به، وما اشتبه عليه وكلّه إلى الله، لَيَتفَقَّهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فليبعثن الله لـه من يبين لـه الآية التي أشكلت عليه، أو يفهمه إياها من قبل نفسه. [٢٣]

فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما مَنْ قصده الفقه فقد أخبر أن الله ـ تعالى ـ لا بد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط.

ومن الأدلة على أن الراسخين في العلم يؤمنون بالمتشابه من القرآن ويبحثون عن المعنى إذا لم يعرفوه أن الصحابة كانوا إذا عَرَض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك، كما سأله عمر فقال: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به [٢٤] ؟ ولما نزل قوله ـ سبحانه ـ {ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [٢٥] شق عليهم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم [٢٦] ، ولما نزل قوله: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} [٢٧] شق عليهم حتى بيّن لهم الحكمة في ذلك [٢٨] ، ولما قال النبي ﷺ : "من نوقش الحساب عذب" قالت عائشة: ألم يقل الله: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً)[٢٩] ؟ قال: إنما ذلك العرض[٣٠] .

ومن قال: إن الراسخين في العلم يؤمنون به ولكن لا يعرفون معناه فقول ساقط لا قيمة لـه، يخالفه إجماع السلف ـ رحمهم الله ـ فإنهم فسروا جميع القرآن، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية وأسأله عنها [٣١] .

وتلقوا ذلك عن النبيﷺ كما قال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود

وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً (٣٢) ، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه لكن لأنه هو لم يعلمه.

- ولأن الله – تعالى – أمر بتدبر القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ولم يقل: لا تتدبروا المتشابه، والتدبر بدون الفهم ممتنع.
- ولأن الله – تعالى – أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئاً عن هذا الوصف، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى.
- ولأن من العظيم أن يقال: إن الله – تعالى – أنزل على نبيه كلاماً لم يكن يفهم معناه، لا هو ولا جبريل، وإذا حدث القول بذلك كان ذلك من أعظم قدح الملاحدة فيه لأنهم سيقولون إنه لا يعرف الأمور العلمية في القرآن، وهذا باطل. (٣٣)

المبحث الثاني: الخشوع والبكاء

الخشوع والبكاء عند الاتصال بالقرآن موقف من مواقـف المـؤمنين تجـاه القرآن، وذلك ما ينبئ برقة تلك القلوب وطمأنينتـها ونـزول السـكينة عليهـا، ولأهمية الموقف وشدته نجد عتاب الله - عز وجل - لمـن تباطـأ وتقـاعس عـن الاستجابة والاستضاءة بنور الله - عز وجل -، وبيانه لما يغشـى القلـوب مـن الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه القسـوة بعـد اللـين حـين تغفل عن ذكر الله - تعالى - وحين لا تخشع للحق: {ألم يـأن للـذين آمنـوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحـق ولا يكونـوا كالـذين أوتـو الكتـاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون} (٣٤) .

ونحن إذا تأملنا آيات القرآن وجـدنا أن الله - عـز وجـل - يـذكر أن من صفات عباده المؤمنين عند تلاوة الكتاب علـيهم الخشـوع والبكـاء، وهـذا أصل في المؤمنين المعظمين لربهم - جل وعـلا -، ويقـول - سـبحانه -: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى علـيهم يخـرون للأذقـان يبكـون ويزيـدهم خشوعاً} (٣٥) .

وهذه مبالغة في صفتهم ومدح لهـم، وحـق لكـل مـن توسـم بـالعلم وحصّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبـة عنـد اسـتماع القـرآن، ويتواضـع ويذل، وقدأخرج الطبري في تفسيره عن التيمي قال: "مـن أوتي مـن العلـم مـا لم يبكه لخليق ألاّ يكون أوتي علماً، لأن الله - تعـالى - نعـت العلمـاء ثم تـلا هذه الآية(٣٦).

ولا شك أن هذا المشهد مشهد مـوح يلمـس الوجـدان، وهـو مشـهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن، فيخشـون، ويخـرون للأذقـان سجدا، تنطق ألسنتهم بما خالج مشـاعرهم مـن إحسـاس بعظمـة الله وصـدق وعده: {سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعـولاً} ويغلبـهم التـأثر فـلا تكفـي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه فإذا الـدموع تنطلـق معـبرة عـن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ {ويخرون للأذقـان يبكـون ويزيـدهم

خشوعاً} [٣٧] **.**

ومثل هذا الذي تقدم ما ذكر الله ـ عز وجـل ـ عـن المـؤمنين أنهـم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وُبكيـاً، قـال ـ جـل شـأنه ـ : {إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وُبكياً} [٣٨] **.**

والمراد بذلك إذا تتلى على أنبيائه علـيهم السـلام ـ أدلـة الله تعـالى ـ وحججه التي أنزلها في كتابه خروا لله سجداً اسـتكانة لـه وتـذللاً وخضـوعاً لأمره، وانقياداً، (وُبكياً) أي يخرون سجداً وهم باكون. [٣٩]

وهذا المذكور عن عباد الله المتقين يفيد أنهـم يلزمـون الأدب عنـد سمـاع الآيات كما كان الصحابة ـ رضي الله عنـهم ـ عنـد سمـاعهم كـلام الله ـ تعالى ـ من تلاوة رسول الله ز، تقشعر جلودهم ثم تلـين مـع قلـوبهم إلى ذكـر الله: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثـاني تقشـعر منـه جلـود الـذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلـك هـدى الله يهـدي بـه من يشاء ومن يضلل فما لـه من هاد} [٤٠] **.**

وهكذا نرى موقف المؤمنين تجاه القرآن، موقـف واضـح لا غمـوض فيـه ولا التواء، استضاءة بنـور القـرآن، وخشـوع إلى ذكـر الله ـ تعـالى ـ، لا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بـل عنـدهم مـن الثبـات والسـكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فـازوا بالمـدح مـن الـرب الأعلى في الدنيا والآخرة، ولذلك لمّا تلا قتـادة ـ يرحمـه الله ـ: {تقشـعر منـه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلـودهم وقلـوبهم إلى ذكـر الله} قـال: هـذا نعت أولياء الله، نعتهم الله ـ عـز وجـل ـ بـأن تقشـعر جلـودهم، وتبكـي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكـر الله، ولم ينعتـهم بـذهاب عقـولهم والغشـيان عليهم، إنما هذا من أهل البدع، وهذا من الشيطان [٤١] **.**

وتأمل قولـه ـ سـبحانه ـ في وصـف عبـاده المـؤمنين: {والـذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمـاً وعميانـاً} [٤٢] **. فقـرر ـ سـبحانه ـ**

هنا أنه إذا ذكرهم مذكر بحجج الله ـ تعالى ـ لم يكونوا صماً لا يسمعونا، وعمياً لا يبصرونا، ولكنهم أيقاظ القلوب فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذكرهم به ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته، وقلوباً وعته[٤٣] ، وهذا بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله حيث لا تؤثر فيه، ويستمر على حاله كأن لم يسمعها، ولم يبصرها [٤٤] ، وعبّر ـ سبحانه ـ هنا بنفي الضد تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون [٤٥] .

وما تقدم ذكره من أن المؤمنين إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكياً دليل على جواز البكاء في الصلاة، وقد روى عبدالله بن شداد [٤٦] قال: سمعت نشيج عمر ـ رضي الله عنه ـ وإني لفي آخر الصفوف، وقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف حتى إذا بلغ: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) نشج، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، وقد كانوا خلفه فصار إجماعاً. [٤٧]

فإن قال قائل: كيف يكون البكاء عند قراءة القرآن؟ فالجواب أن يقال: طريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم يفكر في تقصيره فيها، فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب. [٤٨]

ويحرص المسلم كذلك على البعد عن المعاصي ورؤية أهلها فإن ذلك من أسباب غفلة القلب وإعراضه، وإذا غفل القلب أصيب بالقسوة فلا تؤثر فيه آيات القرآن.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان

إن المؤمنين بكتاب الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ إذا تليت عليهم آيات القرآن أو تلوه بأنفسهم زادتهم إيماناً، فصدقوا وأيقنوا أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك تصديقاً، وذلك هو زيادة ما تلي عليهم من آيات الله إياهم إيماناً [٤٩]، قال – سبحانه – : {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون} [٥٠]، وقال جل شأنه: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون} [٥١]. وهذا يدل على أن المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الاطمئنان.

إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا واسطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه، فإذا زال هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، وَوُجِد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان، وكما أن إيقاعات القرآن وتأثيراته تزيده إيماناً، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات التي تزيده إيماناً.. لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله – تعالى – : {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} [٥٢]، {إن في ذلك لآية للمؤمنين} [٥٣] [٥٤].

وهذا الذي ذكره الله – عز وجل – عن المؤمنين أنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم إيماناً دليل على مذهب من مذاهب أهل السنة والجماعة وهو أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال الإمام ابن أبي العز – يرحمه الله – في كتابه "شرح العقيدة الطحاوية" : "والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً" وذكر منها الآية المتقدمة[٥٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميـة: "ومـن أصـول أهـل السـنة أن الـدين والإيمان قـول وعمـل، قـول القلـب واللسـان وعمـل القلـب واللسـان والجوارح،وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.." (٥٦) .

وقال كذلك: "والزيادة قد نطق بـها القـرآن في عـدة آيـات كقولـه: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكـر الله وجلـت قلـوبم وإذا تليـت علـيهم آياتـه زادتم إيماناً} وهذه الزيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تُليـت، لـيس هـو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المـؤمن إذا تليـت عليـه الآيـات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمـان مـا لم يكـن حـتى كأنـه لم يسمع الآية إلا حينئذٍ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة مـن الشـر مـا لم يكن، فزاد علمه بالله، ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان" (٥٧) .

* وقد يقول سائـل عند قولـه ـ سـبحانه ـ: {أيكـم زادتـه هـذه إيماناً} (٥٨) أليس الإيمان في كلام العرب هو التصديق والإقرار؟

فيقال لـه: بلى، فإن قال: كيـف زادتـم السـورة تصـديقاً وإقـراراً؟ قيل: زادتم إيماناً عندما نزلت لأنـم قبـل أن تـنزل السـورة لم يكـن لـزمهم فرض الإقرار بها والعمل بها بعينها إلا في جملة إيمانم بـأن كـل مـا جـاءهم بـه نبيهم ﷺ من عند الله حق، فلما أنزل الله السورة لـزمهم فـرض الإقـرار بأنـا بعينها من عند الله، ووجب عليهم فـرض الإيمـان بمـا فيهـا مـن أحكـام الله وحدوده وفرائضه، فكان ذلك هو الزيادة الـتي زادتـم نـزول السـورة حـين نزلت من الإيمان والتصديق بها، قاله ابن جرير. (٥٩)

المبحث الرابع: وصف القرآن بالخيرية

ذكر الله – عز وجل – عن عباده المتقين ضمن مواقفهم من القرآن أنهم يصفونه بالخيرية، أي بالبركة والرحمة لمن آمن به واتبعه كما قال – سبحانه –: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم؟ قالوا خيراً} (٦٠)

ونحن إذا تأملنا الآية الكريمة نجد أن لفظة (خيراً) جاءت منكرة لتشمل جميع أنواع الخير، فيدخل في ذلك كونه هدى ورحمة، وموعظة، وشفاء، ونوراً، وبرهاناً، ومباركاً، إذ هو مبارك في ألفاظه أودع الله وتعالى – لقارئه بركة، وللمشتغل به بركة في الدنيا والآخرة، والقرآن خير كله، لأن به كمال النفس وطهارتها بالمعارف النظرية ثم العملية (٦١) .

ومن اشتغل بدراسته والعمل بما فيه عمته بركته وخيره، قال الرازي صاحب "مفاتيح الغيب": "قد جرت سنة الله – تعالى – بأن الباحث عنه أي عن هذا الكتاب المتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة. وأنا قد نقلتُ أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدنيا والآخرة مثل ما حصل لي بسبب خدمة هذا العلم، يعني التفسير. (٦٢)

والمتأمل في قوله – سبحانه – {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً} يجد أن كلمة (خيراً) جاءت منصوبة أي أنزل خيراً، فهو مفعول به لفعل محذوف تقديره: أنزل، وفي نصبه دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب، وأطبقوه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة، فإنهم لما قيل لهم: {ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطيرُ الأولين} (٦٣)

فجاءت لفظة (أساطيرُ) مرفوعة، لماذا؟ لأنهم لم يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله – عز وجل –، فكأنهم قالوا الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين، ولذلك نجدهم يصفون القرآن بصفات مختلفة تدل على إنكارهم تنزيله من رب العالمين، كقولهم إنه قول البشر، وقولهم إنه سحر. (٦٤)

المبحث الخامس: العمل بالقرآن

أنزل الله ـ عز وجل ـ القرآن الكريم من أجل العمل به، وهذه الصفة من أعظم صفات المؤمنين ومواقفهم التي يقفونها تجاه كتاب ربهم، فالقرآن أعظم العلوم، والعمل بهذا العلم العظيم الذي احتوى عليه القرآن من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، ولذا قال الحسن البصري ـ يرحمه الله ـ: إنه تعلم هذا القرآن عبيد وصبيان لم يأتوه من قبل وجهه، ولا يدرون ما تأويله، قال الله ـ تعالى ـ: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته} [٦٥] ما تدبر آياته؟ اتباعه بعمله، وإن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرأه، يقول أحدهم: يا فلان، تعال أقارئك. متى كانت القراء تفعل هذا؟ ما هم بالقُراء ولا الحلماء ولا الحكماء، لا أكثر الله في الناس أمثالهم. [٦٦]

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: (لا يغرركم من قرأ القرآن إنما هو كلام نتكلم به ولكن انظر من يعمل به. [٦٧]

وثبت في الحديث في أول من يقضى فيه يوم القيامة أنه رجل تعلم العلم والقرآن، فأتى به الله فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: تعلمت العلم وقرأت القرآن وعلمتُه فيك، فقال كذبت إنما أردت أن يقال: فلان عالِم وفلان قارئ، فأمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.. الحديث [٦٨].

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ ضمن مواقف المؤمنين تجاه القرآن العمل به، قال ـ سبحانه ـ: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان} [٦٩] فقرر سبحانه في هذه الآية أنهم إن كانوا مؤمنين حقاً فسوف يتعاملون مع الغنائم حسبما ذكره الله ـ عز وجل ـ في القرآن في قوله ـ سبحانه ـ: {يسألونك

عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول} (٧٠) ، وهنا نرى أن الله - عز وجل - نزع ملكية الغنيمة ممن يجمعونا في المعركة وردها إلى الله تعالى والرسول ﷺ ليخلص الأمر كله لهما، وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض، وليسلموا أمرهم كله - أوله وآخره - لله ربهم وللرسول ﷺ قائدهم، وليخوضوا المعركة لله، وفي سبيل الله، وتحت راية الإسلام، طاعة لله - عز وجل - يحكمونه في أرواحهم، ويحكمونه في أموالهم، ويحكمونه في أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض، فهذا هو الإيمان بالله وبما أنزل من آيات، حتى إذا استسلموا لأمر الله، وارتضوا حكمه ذاك، فاستقر فيهم مدلول الإيمان، عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة، ويستبقي الخمس على الأصل - لله والرسول - يتصرف فيه رسول الله ﷺ وينفق منه على من يعولهم في الجماعة المسلمة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة، وقد استقر في نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح، فهم إنما يغزون لله - تعالى - ويفتحون لدين الله، إنما هم يستحقونا بمنح الله لهم إياها كما أنه هو الذي يمنحهم النصر من عنده. (٧١)

وقد قرر الله - عز وجل - في كتابه وجوب العمل بالقرآن وهو الحكم به وبين أن ذلك هو الهدف من إنزال القرآن، قال - سبحانه -: {إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً} (٧٢)، وقال: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} (٧٣) .

وقال - سبحانه -: {فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم

الحساب} (٧٤) .

وقال - سبحانه - واصفاً نبيه محمداً ﷺ بأنه يتبع ما يوحى إليه ويعمل به: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ..} (٧٥) .

* فإن قال قائل: وما الحكم فيمن لم يحكم بما أنزل الله في كتابه أو على لسان رسوله؟

فيقال: هذا اختلف فيه العلماء، ورجح جمع من العلماء الكبار ومنهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - يرحمه الله - أنه إذا استحل الحكم بغير ما أنزل الله فإنه يكفر كفراً أكبر، ويظلم ظلماً أكبر، ويفسق فسقاً أكبر.

ومن فعلها بدون استحلال كان كفره كفراً أصغر، وظلمه ظلماً أصغر، وفسقه فسقاً أصغر، وبذلك يؤول قوله - سبحانه -: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}(٧٦)، وقوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} (٧٧) وقوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} (٧٨) .

ومما يشهد لذلك تسمية بعض المعاصي دون الكفر كفراً كقوله ﷺ كما في الصحيحين (٧٩) : "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" فأطلق لفظ الكفر على القتال، يريد بذلك الكفر الأصغر تنفيراً من هذا العمل (٨٠) .

الفصل الثاني

موقف الكفار

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: الغضب عند سماع آيات القرآن

إذا كان الفرح والاستبشار والشوق إلى الله – تبارك وتعالى – يحصل للمؤمنين عند سماع آيات القرآن؛ لما أوقعه الله – تعالى – في قلوبهم من الإيمان والتصديق فإن من منهج الكافرين الغضب والتذمر والتسخط عند تلاوة الآيات عليهم بسبب كرههم للحق وأهله، وهذا شأن كل كافر جحود، فإنه إذا رأى الحق وأهله ولم يتبعهم صار مبغضاً لهم، كارهاً الاجتماع بهم، قال – سبحانه –: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير} [٨١]

وهذا فيه دلالة واضحة على أن هذا الكافر إذا نصح بآيات القرآن

أخذته العزة بالإثم، بسبب ما اشتمل عليه من الآيـات كمـا قـال - تبـارك اسمه -: {وإذا قيل لـه اتق الله أخذته العـزة بـالإثم فحسـبه جهـنم ولبـئس المهاد} (٨٢).

إن موقف عبدالله بن مسعود - رضي الله عنـه - مـع المشـركين عنـدما قرأ القرآن عليهم يكشف لنـا ذلـك بوضـوح مـا رواه، كمـا في "أسـد الغاية" (٨٣) عن عروة بن الزبير قال: كان أول مـن جهـر بـالقرآن بمكـة بعـد رسول الله ﷺ عبدالله بن مسعود - رضي الله عنـه - اجتمـع يومـاً أصـحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القـرآن يجهـر بـه قـط، فمـن رجل يسمعهم؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنـا نخشـاهم عليـك، إنمـا نريد رجلاً لـه عشيرة تمنعـه مـن القـوم إن أرادوه، فقـال دعـوني فـإن الله سيمنعني، فغدا عبدالله حتى أتى المقام في الضحى وقـريش في أنديتـها حـتى قـام عبدالله عند المقام فقال رافعاً صوته: {بسم الله الـرحمن الـرحيم. الـرحمن علـم القرآن}... فاستقبلها فقرأ بها، فتأملوا فجعلوا يقولون ما يقـول ابـن أم عبـد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ﷺ فقـاموا، فجعلـوا يضـربونه في وجهـه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصـحابه، وقـد أثـروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كـان أعـداء الله قـط أهـون علي منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً، قـالوا: حسـبك قـد أسمعتـهم ما يكرهون.

وهكذا نرى منهج هؤلاء الكفار عندما تلقى عليهم كلمة الحق، إنهـم لا يناهضـون الحجة بالحجة، ولا يقرعون الدليل بالدليل، إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عندما تعوزهم الحجة،ويخذلهم الدليل، وذلك شأن الطغاة دائماً يشتجر في نفوسهم العتـو، وتتيح فيهم روح البطش، ولا يستمعون إلى كلمة الحق، لأنهم يدركون أن ليس لهـم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ، ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد كما تقدم في آية الحج: {قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير} (٨٤).

المبحث الثاني: الشك والريب

بين الله ـ عز وجل ـ في القرآن أن الكفار في حالة شك وريب تجاه القرآن أنه منزل من عند الله ـ عز وجل ـ رغم أن الأمر واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار، قال ـ سبحانه ـ عن كفار قريش: {وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب} (٨٥) .

هنا في هذه الآيات يقرر ربنا ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المشركين لا ينقصهم أن يكونوا أهل علم بأن محمداً ﷺ صادق، ولكنهم في شك من وحينا إليه، وليس في عقيدتهم ما يقطعون به تجاه القرآن، فلذلك تراهم ينسبونه إلى السحر تارة، وإلى الاختلاق تارة، فهم في حالة شك وريب أن الله ـ تعالى ـ أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ ولكنهم سوف يجنون عاقبة ذلك في الآخرة، عندما يذوقون العذاب (٨٦) ، عند ذلك يعلمون ويوقنون حقيقة ما كانوا عليه تجاه القرآن، ويقرون بأنهم كانوا ظالمين كما سيأتي بيانه في مبحث قادم ـ إن شاء الله تعالى ـ.

فالكفار إذاً مصرون على رأيهم ذلك، لا ينفكون عنه بحال حتى تأتيهم الساعة كما قال ـ جل وعلا ـ: {ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم} (٨٧) فقوله ـ سبحانه ـ: {منه} أي من القرآن الذي يفهم من قوله ـ سبحانه ـ في الآية السابقة لهذه الآية: {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم..}(٨٨) ، وقد نقل ابن جرير عن ابن جريج في معنى قوله ـ سبحانه ـ: {في مرية منه} قال: {من القرآن}(٨٩) .

ولا شك ولا ريب أنهم بسبب هذا الشك والريب هالكون يوم القيامة

لأن الله ـ تعالى ـ بعدُ ذكر حالهم وحال من آمن بالقرآن وأخبتت له قلوبهم، قال سبحانه: {الملك يومئذٍ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين} (٩٠) .

وإن هذا الشك في القرآن دليل على أنهم قوم لا يعقلون، قوم لا يفقهون، قوم لا يفكرون فيما ينفعهم غداً عند الله ـ تعالى ـ، ولهذا نفى الله ـ تعالى ـ أن يكون ريب فيه فقال: {ذلك الكتاب لا ريب فيه}(٩١) ، معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه لا يرتاب العاقل فيه أبداً، بل يجزم بأنه وحي قد بلغ حد الإعجاز بحيث لا يدع مجالاً للشك فيه (٩٢) ، وقد كشف الله ـ تعالى ـ في القرآن باطل الكفار في ريبهم من القرآن، لما تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، ثم بين ـ سبحانه ـ عجزهم عن ذلك، قال ـ تبارك اسمه ـ: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين} (٩٣) .

والتحدي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة وتقرير القرآن أنهم لن يفعلوا، وتحقق ذلك كما يراه الناس جميعاً معجزة لا سبيل للمماراة فيها، ومن ثم جاء التهديد المخيف لمن يشكون ويرتابون في تنزل القرآن من رب العالمين، ثم يدعون إلى الإتيان بسورة من مثله فلا يستطيعون ولا يستجيبون للحق (٩٤) : {فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين}.

وهكذا أفحموا عن الجواب وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد. (٩٥)

المبحث الثالث: وصفه بالسحر

إن الناظر في حياة المبطلين الذين لا يستطيعون الوقوف أمام الحق والنور المبين ليَرَى ويعلم يقيناً أنهم يسلكون سبيل الإنكار والجحود، والشك والارتياب في أمر الحق الذي يعرضه المؤمنون عليهم كما رأينا ذلك في المبحث المتقدم، ويسلكون كذلك سبيل وصف الحق الذي يؤيد الله ـ تعالى ـ به المؤمنين وهو القرآن، يسلكون سبيل وصفه بالسحر، وما معهم في ذلك حجة ولا برهان، ولكنها طريقة البطالين والمفلسين من كل خلق كريم وتعامل سليم، كما توضح ذلك آيات سورة المدثر في شأن أحد الكفار وهو الوليد بن المغيرة الذي استكبر عن الحق بعدما عرفه، وصد عن النور بعدما أبصره، ولذلك توعده الله ـ عز وجل ـ بالعذاب الشديد، بسقر التي لا تبقي ولا تذر: {ذرني ومن خلقت وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيداً. سارهقه صعوداً إنه فكر وقدر. ثم فقتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر. عليها تسعة عشر} (٩٦).

روى عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه، فقال: أي عمّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لِمَ؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قِبَله، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكِر لما قال، وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه، فالله مَا منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوةً وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعْلَى. قال: واللهِ لا

يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيـه، فلمـا فكّـر قـال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره، فـ لت: {ذرني ومن خلقتُ وحيداً..} (٩٧) .

والمقام هنا مقام رهيب مفزع، كيف لا وقـد تـولى الله ـ عـز وجـل ـ حرب هذا المكابر المعاند، الذي عرف الحق تماماً فتركـه وأعـرض عنـه، نـرى هنا كيف أن الله ـ تعالى ـ يقول لنبيه ﷺ : {ذرني ومـن خلقـت وحيـداً} أي خل بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده، فأنا سأتولى حربـه، وهنـا يـرتعش الحس ارتعاشه الفزع المزلزل، وهو يتصور انطلاق القوة الـتي لا حَـد لهـا قـوة الجبار القهار، قوة العزيز الحكيم ـ جل شـأنه ـ لتنـتقم مـن ذلـك المخلـوق المتجبر الذي في حقيقته ضعيف مسكين هزيل ضـئيل، وهـذه الرعشـة يطلقهـا النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منـها، فكيـف بالشـخص الـذي تتجه إليه وتواجهه، وهذا جزاء مـن عانـد دلائـل الحـق وموجبـات الإيمـان، ووقف في وجه الدعوة، وهذا مصير من حارب الـنبي ﷺ وصـدّ نفسـه وغـيره عن دعوته، وراح يطلق حولها الأضاليل بعد أن عـرف الحـق، واتضـحت لـ ـه معالمه. (٩٨)

والعجب أن وصف القرآن بأنه سحر ليس هو كـلام الوليـد فقـط، بـل هذا قد ذكره ـ سبحانه ـ عن عموم الكافرين كمـا قـال ـ جـل وعـلا ـ: {وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سـحر مـبين} (٩٩) ، وفي الآيـة الأخرى: {وقالوا إن هذا إلا سـحر مـبين} (١٠٠) ، فلمـا قالـه جماعـة منـهم وأقرهم الآخرون صار الجميع قائلين لـه. ولم يكن إطـلاق لفـظ السـحر علـى آيات الله ـ تعالى ـ بأنها سحر مقصوراً على كفار قـريش فحسـب، بـل هـذا قد ذكره الله ـ عز وجل ـ عن الكافرين من قوم موسـى ـ عليـه السـلام ـ كما قال ـ سبحانه ـ: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضـاء مـن غـير سـوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسـقين. فلمـا جـاءتهم آياتنـا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بـا واسـتيقنتها أنفسـهم ظلمـاً وعلـواً فانظر كيف كان عاقبـة المفسـدين} (١٠١) ، وقـال سـبحانه: {فلمـا جـاءهم

موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} [١٠٢] .

المبحث الرابع : وصفه بأنه أساطير الأولين

من أعجب مظاهر الإعراض والاستكبار عن الحق عند الكفار والمشركين وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين، يريدون بذلك أنه مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم [١٠٣] .

وقد بين الله – عز وجل – مقولتهم الشنيعة هذه في عدد من سور القرآن، في سورة الأنعام، والأنفال، والنحل، والمؤمنون، والفرقان، والنمل، والأحقاف، والقلم، والمطففين.

وقد كان هؤلاء الكفرة المعاندون يصفون القرآن بأنه أساطير الأولين في مناسبات متعددة، وسأوضح ذلك فيما يلي:

١. عند تلاوة الآيات عليهم، كما قال – سبحانه –: {ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عُتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذلك مال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} [١٠٤] .

وقد علق الإمام البغوي – يرحمه الله – على أفعال هذا المشرك والتي منها وصف القرآن بأنه أساطير الأولين بقوله: "جعل مجازاة النِعَم التي خُولها الكفر" [١٠٥] .

وقرر الله – عز وجل – مقولة المشركين هذه في سورة المطففين بقوله: {ويل يومئذٍ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}[١٠٦] . وقوله – سبحانه – : {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} بيان بأن الذي أدى بهم إلى هذه المقولة الشنيعة تجاه القرآن عليهم من حب المعاصي التي انمكوا فيها حتى صار

ذلك صدأ على قلوبهم، فعمّى عليهم معرفة الحـق، فقـالوا هـذا القـول [١٠٧] ، وهكذا المرء إذا أشرب قلبه حب المعاصي اسود قلبه كمـا أخـرج الترمـذي في سننه [١٠٨] عن أبي هريرة ـ رضـي الله عنـه ـ عـن رسـول الله ﷺ قـال: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سـوداء، فـإذا هـو نـزع واسـتغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبـه وهـو الـران الـذي ذكـر الله: {كلابل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}.

قال الترمـذي: هذا حديث حسـن صـحيح. وقـال الألبـاني: حـديث حسن [١٠٩] .

٢. عند ذكر البعث المقرر في القرآن، وذلـك أن الله ـ عـز وجـل ـ قـرّر في القرآن أن جميع الخلق سيخرجون أحياء مـن قبـورهم يـوم القيامـة {يـوم يقوم الناس لرب العـالمين} [١١٠] وهـذا مـا جـاء بـه رسـولنا ﷺ قومـه المشركين كفار قريش، فكان من صـور إعراضـهم وزيغهـم أنـهم أنكـروا هذا البعث وكذبوه تمام التكذيب رغم أن آيات القـرآن الـتي تقـرر ذلـك تقرعهم بذلك ليلاً ونهاراً، فكانوا يصـفون ذلـك بأنـه أسـاطير الأولـين، وهذا غاية الإمعان في الكفر والعناد، قال ـ جل شـأنه ـ: {وقـال الـذين كفروا إذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون. لقد وعـدنا هـذا نحـن وآباؤنـا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} [١١١] .

قال ابن جرير ـ يرحمه الله ـ: "يقول ـ تعـالى ذكـره ـ: قـال الـذين كفروا بالله إننا لمخرجون من قبورنا أحياء، كهيئتنا من بعـد مماتنـا بعـد أن كنـا فيها تراباً قد بَلِيْنا {لقد وُعِدنا هذا نحن وآباؤنا من قبـل} يقـول: لقـد وُعِـدنا هذا من قبل محمد وَعَدُونا ووعدوا ذلك آباءنـا، فلـم نـر لـذلك حقيقـة، ولم نتبين لـه صحة {إن هذا إلا أساطير الأولين} يقول: قالوا: مـا هـذا الوعـد إلا ما سطر الأولون من الأكاذيب في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحـدثوا بـه مـن غـير أن يكون لـه صحة" أ.هـ [١١٢] .

ولا شك أن هؤلاء الكفار لما حكمـوا علـى أن البعـث والنشـور يـوم

القيامة أساطير الأولين فإنهم يقولون ذلك نتيجة تكذيبهم للقرآن، وزعمهم بأنه أساطير الأولين.

ومثل هذا الذي قرره الله – عز وجل – في سورة النمل قرره – سبحانه – في سورة المؤمنون وسورة الأحقاف.

قال – سبحانه – في سورة المؤمنون: {بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أإنا لمبعوثون. لقد وُعِدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} (١١٣) .

وقال – جل وعلا – في سورة الأحقاف: {والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانِني أن أخرج "أي أُبعث" وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين} (١١٤) .

٣. عند تحديهم للقرآن بأنهم يستطيعون الإتيان بمثله، كما قال – عز وجل –: {وإذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين} (١١٥) .

وهذا الكلام الذي قاله هؤلاء المشركون لا شك أنه في غاية العناد والمكابرة، كيف لا ولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الذي كان يمنعهم من المشيئة، وقد تُحدوا عشر سنين، وقرعوا على العجز، وذاقوا الأمرين، ثم قورعوا بالسيف، فلم يعارضوا بما سواه، مع أنفسهم وفرط استنكافهم أن يُغلبوا لا سيما في باب البيان. (١١٦)

٤. وعند مخاصمتهم ومجادلتهم للنبي ﷺ بالباطل، كما ذكر – سبحانه – في سورة الأنعام: {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين}(١١٧) .

٥. عند تكذيبهم للقرآن وزعمهم أنه من اختلاق محمد ﷺ كما قال –

تبارك اسمه ـ : {وقالوا أساطير الأولين اكتتبـها فهـي تُملـى عليـه بكـرة وأصيلاً}(١١٨)، جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكـر الله ـ عـز وجـل ـ المقولة الشنيعة للكفار حـول القـرآن إنـه إفـك افتـراه رسـول الله ﷺ ، وذلك في قولـه ـ سبحانه ـ: {وقال الـذين كفـروا إن هـذا إلا إفـك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً} (١١٩) .

وهكذا نرى أن الكفار زعموا أن القـرآن مـن اخـتلاق محمـد ﷺ ، وأن آياته تملى عليه بكرة وأصيلاً ليحفظها، لأنه أمي لا يقدر على القراءة (١٢٠) .

٦. عند سؤالهم عن الشيء الذي أنزلـه الله ـ تعالى ـ علـى قلـب محمـد ﷺ وهو القرآن، فيقولون في الجواب على ذلك إنه أسـاطير الأولـين، يقـول ـ سبحانه ـ: {فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكِـرة وهـم مسـتكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنـون إنـه لا يحـب المسـتكبرين* وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أسـاطير الأولـين} (١٢١) وهنـا نجـد لفظـة (أساطير الأولين) جاءت مرفوعة؛ وذلك لأنهم لم يؤمنـوا بأنـه منـزل مـن عند الله ـ عز وجل ـ، ولذلك نجدهم تارة يصـفونه بأنـه سـحر، وتـارة بأنه قول البشر، وهكذا، فكأنهم يقولون هنا ما يقولـه محمـد هـو أسـاطير الأولين، وهذا بخلاف المؤمنين كما بينا سابقاً في وصـفهم القـرآن بالخيريـة: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خـيراً} (١٢٢) ومجـئ لفـظ (خـيراً) منصوباً دليل على اعترافهم الواضح بـأن القـرآن مـنزل مـن عنـد الله ـ جل وعلا ـ لأن التقدير: أنزل ربنا خيراً أي القرآن.

وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ هنا عند ذكـر مقولـة الكفـار تجـاه القـرآن بأنـه أساطير الأولين الجزاء الذي سينالونه، وهو أنهم سيحملون آثـامهم كاملـة يـوم القيامة لا يغفر لهم منها شيء، قال سـبحانه: {ليحملـوا أوزارهـم كاملـة يـوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون} (١٢٣) .

المبحث الخامس : الاستهزاء والضحك منه وطلب المعجزات

الحق أن الكفار الذين عشعش الكفر في أبدانهم وسرى في كل ذرة من أجسادهم قد انقلبت عندهم الموازين، واختلت القيم، فصار الحق عندهم باطلاً، والباطل حقاً، لقد بلغ بهم الاستكبار عن الحق، والعناد والتعنت ما جعلهم يضحكون استهزاء بالقرآن، والدليل على ذلك أن الله – عز وجل – أنبهم على ذلك وفضحهم لفعلهم هذه الجريمة الشنعاء، يقول – سبحانه – مخاطباً مشركي قريش: {أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا} (١٢٤) .

قال ابن جرير – يرحمه الله –: "يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: أفمن هذا القرآن أيها الناس تعجبون أن نزل على محمد ﷺ وتضحكون منه استهزاء به، ولا تبكون مما فيه من الوعيد لأهل معاصي الله وأنتم من أهل معاصيه، وأنتم سامدون، يقول: وأنتم لاهون عما فيه من العبر والذكر، معرضون عن آياته" (١٢٥) .

* ومن أوجه استهزاء الكفار بالقرآن اللعب عند الاستماع إليه، كما قال – جل شأنه –: {اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون} (١٢٦) .

فقوله: (وهم يلعبون) أي إنهم يستهزئون بالقرآن ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب (١٢٧) .

* ومن أوجه استهزائهم طلبهم من الرسول ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن كما قال – تبارك اسمه –: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم. قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون} (١٢٨) .

هنا يخبر ـ سبحانه ـ عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم رسول الله ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة، قالوا له: ائت بقرآن غير هذا أي رُد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت أو ما نكرهه من معايب آلهتنا، وهذا لا شك أنه نوع من الاستهزاء بالقرآن والتعريض به، وعلامة على تعنتهم وإصرارهم على الباطل، ولذا ردّ الله ـ تعالى ـ عليهم بقوله: {قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي...} يعني أن ذلك ليس إلى الرسول ﷺ، إنما هو عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ـ تعالى ـ، وأن هذا القرآن الذي جاءهم به إنما جاءهم به عن إذن الله ـ تعالى ـ له في ذلك ومشيئته وإرادته، وإن أكبر دليل على أنه ﷺ لم يتقوله من عند نفسه ولا افتراه أن هؤلاء الكفار عاجزون عن معارضته وأنهم يعلمون صدق النبي ﷺ وأمانته منذ نشأته بينهم إلى حين بعثه الله ـ تعالى ـ [(١٢٩)].

وهؤلاء المشركون قد لا يسخرون من القرآن مباشرة ولكنهم قد يسخرون من المؤمنين الضعفاء عند تلاوة الآيات عليهم كما قال ـ جل وعلا ـ: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً} [(١٣٠)].

لقد كان كفار قريش يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء مّن الله عليهم من بيننا، وكما تقرر الآية الكريمة هنا أن هؤلاء الكفار لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله ـ تعالى ـ، لقصور نظرهم على الحال، وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا، فردّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله: {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً} [(١٣١)] [(١٣٢)].

ومن علامات استكبار الكفار عن اتباع القرآن التعنت وطلب

المعجزات، كما قال - تبارك اسمه - : {ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كُفُوراً. وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً} (١٣٣)

وهكذا قصُر إدراك هؤلاء عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية أو يتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج، ولم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه في أساليب شتّى، تناسب شتى العقول والمشاعر، وشتى الأجيال والأطوار (١٣٤) .

وها هي آيات سورة القصص التي يخبر فيها سبحانه عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول، يخبر سبحانه بأنهم لمّا جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: {لولا أوتي مثل ما أوتي موسى} أي مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع وغير ذلك، وقد رد عليهم سبحانه بقوله: {أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} (١٣٥)

(أهدى منهما) أي من التوراة والقرآن (١٣٦) قال الله - تبارك وتعالى - : {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين}(١٣٧) .

المبحث السادس: التكذيب والزعم بأنه كلام بشر

التكذيب بالقرآن والزعم بأنه كلام بشـر أحـد المواقـف الشـنيعة الـتي واجه بها الكفار كتاب الله ـ عز وجـل ـ كمـا قـرر ذلـك ربنـا ـ تبـارك وتعالى ـ في عدد من آي القرآن، يقول ـ سـبحانه ـ: {فقـد كـذبوا بـالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كـانوا بـه يسـتهزءون} [١٣٨] ، وقـال: {بـل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج} [١٣٩] .

ولم يكتف الكفار بالتكذيب المجرد بل بالغوا في هذا التكـذيب حـتى لقـد قالوا: {اللهم إن كان هذا هو الحق مـن عنـدك فـأمطر علينـا حجـارة مـن السماء أو ائتنا بعذاب أليم} [١٤٠] .

والمتأمل لهذا التكذيب من قِبَل هـؤلاء الكفـرة يجـد أن سـببه الإعـراض عن الحق والصدود عنه، يقـول ابـن القيـم" [١٤١] . عنـد ذكـره قولـه ـ تعالى ـ: {فبأي حديث بعـد الله وآياتـه يؤمنـون} [١٤٢] يقـول: "فـالأمر منحصر في الحق والباطل والهدى والضلال، فـإذا عـدلتم عـن الهـدى والحـق فأين العدول وأين المذهب؟ ونظير ذلك قولـه ـ تعـالى ـ: {فهـل عسـيتم إن توليتم أن تفسـدوا في الأرض وتقطعـوا أرحـامكم} [١٤٣] أي إن أعرضـتم عـن الإيمـان بـالقرآن والرسـول ﷺ وطاعتـه فلـيس إلا الفسـاد في الأرض والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم، ونظيره قولـه ـ تعـالى ـ: {بـل كـذبوا بالحق لمّا جاءهم فهم في أمر مريج} [١٤٤] لمّا تركـوا الحـق وعـدلوا عنـه مَـرَجَ عليهم أمرهم والتبس فلا يدرون ما يقولون وما يفعلـون، بـل لا يقولـون شـيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهـذا شـأن كـل مَنْ خرج عن الطريـق الموصـول إلى المقصـود.. وهكـذا لمّـا كـذبوا بـالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم فإن الحـق شـيء واحـد وطريـق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب" أ. هـ.

وهذا التكذيب الذي قام به المشركون قـد أبطلـه الله ـ عـز وجـل ـ وردّ عليه وفضحهم، قال ـ سبحانه ـ: {ولقد نعلم أنهـم يقولـون إنمـا يعلمـه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عـربي مـبين} [١٤٥] ، وقـال

في الآية قبلها: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين} (١٤٦) .

وفي هذا ردّ واضح على قول الكفار: (درستَ) كما في سورة الأنعام (١٤٧) ، وقولهم: (معلم مجنون)، كما في سورة الدخان (١٤٨) ، وقولهم: {إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون} في سورة الفرقان. (١٤٩)

ومما رد الله – عز وجل – به مقولة الكفار إنه قول بشر قوله – سبحانه – : {وما تنزلت به الشياطين} (١٥٠) وذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه.

١. قوله: {وما ينبغي لهم} أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة.
٢. قوله: {وما يستطيعون} أي ولو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر وهذا من رحمة الله – تعالى – بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله ﷺ .
٣. قوله – سبحانه – {إنهم عن السمع لمعزولون} وهذا كقوله – سبحانه – مخبراً عن الجن: {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً} (١٥١) .

وقال الألوسي" عند الآيات الكريمة السابقة: {وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون} قال:

فيه إشارة إلى أنه ليس للشيطان قوة حمل القرآن لأنه خلق مـن نـار وليس لهـا قوة حمل النور[١٥٢].

التكذيب بالقرآن ظلم عظيم

ولما كان القرآن واضحاً بيناً، قد قامت الدلائل والحجج علـى أنـه كـلام الله ـ تعالى ـ وليس بكلام بشر فقد حكـم الله ـ عـز وجـل ـ علـى مَـنْ كذّب به بأنه قد بلغ الغاية الكبرى في الظلم، قال تبـارك اسمـه: {فمـن أظلـم ممن كـذب علـى الله وكـذّب بالصـدق إذ جـاءه ألـيس في جهـنم مثـوى للكافرين} [١٥٣].

فأخبر سبحانه هنا أنه لا أحد أظلـم مـن هـذا؛ لأنـه جمـع بـين طـرفي الباطـل، كـذب علـى الله، وكـذّب بالصـدق إذ جـاءه [١٥٤]، وتوعـدهم بقولـه: {أليس في جهنم مثوى للكـافرين} ولمـا كـان هـؤلاء الكفـار علـى الباطل لما كذبوا فإنهم ينـدمون علـى ذلـك في الآخـرة، ولات سـاعة منـدم: {ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يـا ليتنـا نـرد ولا نكـذب بآيـات ربنـا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبـل ولـو رُدوا لعـادوا لمـا نُهوا عنه وإنهم لكاذبون} [١٥٥]، وقـد ردّ الله ـ تعـالى ـ علـيهم هنـا بـأنهم كاذبون فيما قالوه، وأنهم إن عادوا إلى الدنيا لرجعوا إلى الكفر والعناد.

ولقد كان جـزاء ذلـك التكـذيب شـديداً مهـولاً، كيـف لا والـذي ينتظرهم عذاب دائم أبد الآبدين: {وأما إن كان مـن المكـذبين الضـالين. فـنزل من حميم. وتصلية جحيم} [١٥٦]، {وأما الذين كفـروا وكـذبوا بآياتنـا ولقـاء الآخرة فأولئك في العـذاب محضـرون} [١٥٧]، {ألم تـر إلى الـذين يجـادلون في آيات الله أنى يصرفون. الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسـلنا بـه رسـلنا فسـوف يعلمون. إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسـل يسـحبون. في الحمـيم ثم في النـار يسجرون} [١٥٨].

المبحث السابع: الإعراض عنه بتقليد الآباء

هذه حقيقة واضحة قررها الله – عز وجل – في القرآن، وهو ما يبين العناد والتعنت الذي كان عليه الكفار، يقول – سبحانه –: {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون} (١٥٩)، وقال – تبارك اسمه –: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا} (١٦٠)، وهذا الإعراض عن القرآن هو نوع من هجر القرآن الذي بين الله – عز وجل – في القرآن أن الكفار قد اتصفوا به، إذ قال – سبحانه –: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} (١٦١)، وقد ذكر ابن القيم – يرحمه الله – أنواعاً لهجر القرآن، نذكرها فيما يأتي:

١. هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.
٢. هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه.
٣. هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.
٤. هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.
٥. هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائه فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: {وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} (١٦٢).

وهذه الأنواع لهجر القرآن موجودة بلا شك عند الكفار، وقد توجد عند بعض المسلمين الذين غرهم الشيطان، فاتبعوا أهواءهم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

قال ابن القيم بعد ذكره لهذه الأنواع: وإن كان بعض الهجر أهون من بعض، وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله – تعالى –، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه

مخلوقاً من بعض مخلوقاته.. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات، وتارة يكون من جهة دلالته، وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب المصلحة، فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء [١٦٣].

وهكذا يجد المتأمل لهذا الكلام الرصين أن موقف الناس من القرآن قرباً وبعداً بحسب ما وقر في قلوبهم من الإيمان وبحسب تركهم العمل بما في القرآن من أمر ونهي وغير ذلك، وأنت عندما تتأمل في أصحاب المذاهب المنحرفة والأهواء الضالة تجد ذلك واضحاً بيناً، وهم كما يقول ابن القيم - يرحمه الله - في مدارج السالكين: "درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم، فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم، فليسوا يبصرونها لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً، خلعوا نصوص الوحي عند سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا مالك عندنا من عبور..

"المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظاهر مبخوس حظه من المعقول والدوائر مع النصوص كحمار يحمل أسفاراً، فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون {وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون} (١٦٤) .

أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلهما واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه إلا أثراً واستكباراً، فتراهم أبداً بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزؤون.. خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك، تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين.." (١٦٥) .

المبحث الثامن : محاولة صرف الناس عن القرآن (١٦٦)

القرآن العظيم مصدر كل قوة، ومنبع كل خير، وأساس كل فضيلة. ولقد صرح أعداؤنا اليوم أنهم لن يستطيعوا القضاء علينا إلا إذا فتنونا عن القرآن، وأسوق الآن إلى القارئ الكريم شواهد على ذلك:

١. يقول غلادستون: ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان.

٢. ويقول المبشر وليم جيفور بالكراف:

متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة بعيداً عن محمد وكتابه.

٣. ويقول المبشر تاكلي: يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تماماً، يجب أن نبين

للمسلمين أن الصحيح في القرآن، ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً.

٤. ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور عام على احتلالها: يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم.. ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم، حتى ننتصر عليهم.(١٦٧)

وقبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان بين القرآن العظيم لنا محاولة أعداء الله - تعالى - من الكافرين صرف الرسول ﷺ وصده عن كتاب ربه العظيم، ذلك الكتاب الذي أنزله الله عليه ليكون له وللناس جميعاً هادياً، وبشيراً، وسراجاً يُهتدى بنوره.

ها هو القرآن يقرر ذلك في سورة الإسراء، يقول جل في علاه: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لا تخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً} (١٦٨) .

لقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد معنى الفتنة هنا، ولكل قول مثال يوضحه.

وأنا هنا أذكر تلك الأقوال وأمثلتها من المرويات الواردة في ذلك. وبعده أبين الراجح - بإذنه تعالى -.

*** أقوال المفسرين في هذه الفتنة:**

١. أن المراد بالفتنة الإلمام بالآلهة؛ لأن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ذلك فهم به، لما ورد أنه كان يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعه حتى يلم بآلهتنا، فحدث نفسه، وقال: ما عليّ أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره، فأبى، فأنزل الله - تعالى -: {وإن كانوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره}(١٦٩) .

٢. أن المراد بالفتنة طلب بعض الكبراء من النبي ﷺ أن يجعل لهم مجلساً دون

مجلس الفقراء، وأنهم بزعمهم سوف يسمعون منه، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم، حيث روي أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن إليهم، فأوحى الله إليه: {وإن كادوا ليفتنونك..} (١٧٠) .

٣. أن المراد بالفتنة ما روي عن قتادة أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ليلة إلى الصباح يكلمونه، ويفخمونه، ويقولون: أنت سيدنا، وابن سيدنا، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك} (١٧١)هذه أقوال المفسرين في بيان معنى الفتنة في الآية الكريمة، والحقيقة أن المتأمل في ذلك يجد أنه ليس هنالك بيان في الكتاب، أو خبر في السنة قاطع، تثبت به معنى الفتنة، والصواب في نظري كما يرى الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ أنه لا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عني بذلك منه (١٧٢) .

أعود بعد هذا البيان لأقول: إذا كانت الآية الكريمة قد بينت أن المشركين حاولوا أن يفتنوا رسول الله ﷺ عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله ـ وهو المعنى العام للآية ـ أقول: إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ وهو قائد المؤمنين، ورسول رب العالمين، فكيف بمن هو دونه من سائر البشر؟ إن الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ يواجهون من أعداء الملة والدين في كل مكان حملة مسعورة لصدهم عن كتاب ربهم، وإبعادهم عن هذا المنبع الأصيل الذي يستقون منه كل ما يحتاجونه في أمور دينهم ودنياهم.

إن هذه الحملة هي ديدن أولئك الطغاة والمتجبرين، ومن نحا نحوهم من أذنابهم المنتشرين في كل مكان مع الدعاة المخلصين والعلماء الربانيين.

وإن المتأمل في أعمال أولئك الطغاة يجد أنـها محـاولات مدروسـة مخططـة، إذ هم لا يحاولون صرفهم عن كتاب ربـهم ودعـوتهم بالكليـة، إنمـا يحـاولون جلبهم إلى صفهم ـ ولو قليلاً ـ ليرضوا بالحلول الوسط بعد ذلك.

وإن من حملة الدعوة من يفتن بمثل هؤلاء عـن دعوتـه لأنـه يـرى الأمـر هيناً يسيراً، إذ إن أصحاب السلطان ـ كما قلت ـ لا يطلبـون إليـه أن يتـرك كتاب ربه ودعوته كلية، إنما هم يطلبون تعـديلات طفيفـة ليلتقـي الطرفـان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان على حامـل الـدعوة مـن هـذه الثغـرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليهـا ولـو بالتنـازل عـن جانب منها.

إن على دعاة الإسلام أن ينتبهوا لهذه المكيدة مـن أعـداء الـدين، ويقفـوا أمامها بكل قوة، فإن هم فعلوا ذلـك نجـوا، وإن هـم لم يفعلـوا فقـد فقـدوا هيبتهم، وحصـانتهم، وعـرف المتسـلطون أن اسـتمرار المسـاومة، وارتفـاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلـها. وتلـك لعمـر الله المهلكـة السـريعة، والهزيمة التي تدب في أعمـاق السـريرة، وإن الهزيمـة إذا دبـت في الأعمـاق، وتغلغلت فلن تنقلب الهزيمة نصراً أبداً. (١٧٣)

وبعد هذا البيان المهم أعود مـرة أخـرى إلى آيـة الإسـراء، فـأقول: إن هذه الآية العظيمة قد اشتملت على فوائـد عظيمـة، ومـواعظ بليغـة، ولعلـي أوجزها في الأمور التالية:

١. الآية دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيـت الله ـ تعـالى ـ إيـاه، وأنـه لا يزال متملقاً لربه أن يثبته على الإيمـان، سـاعياً في كـل سـبب موصـل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق قـال الله ـ تعـالى ـ لـه: {ولـولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً} فكيف بغيره؟!

٢. تذكير الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ منته عليه، وعصـمته مـن الشـر، فـدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامـه علـيهم عنـد وجـود أسباب الشر بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

٣. إنه على الرغم من علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله فإن إثمه يعظم، وجرمه يتضاعف إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر رسوله ﷺ لو فعل ـ وحاشاه من ذلك ـ بقوله: {إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} [١٧٤] .

التحذير من الفتنة

إذا كان القرآن الكريم قد أخبرنا بمحاولة المشركين فتنة رسول الله ﷺ عن القرآن، فإنه لم يتركه دون تقديم النصائح والتوجيهات التي يتمسك بها لتكون زاداً له، ولأمته من بعده، فلا تؤثر فيه وفيهم مؤامرات الأعداء الحاقدة، ومخططاتم الفاجرة.

ها هو القرآن يحذر النبي الكريم ﷺ فيقول سبحانه كما في سورة المائدة في معرض الحديث عن كيفية معاملته ﷺ لليهود: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} [١٧٥] .

إن الله ـ عز وجل ـ قد نهى في آية متقدمة على هذه الآية عن ترك شريعة الله ـ تعالى ـ كلها إلى أهوائهم: {فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} [١٧٦] ، وإن التحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته، إذ هي فتنة يجب أن تحذر، والأمر في هذا الحال لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً، أو أن يكون اتباعاً للهوى، وفتنة يحذر الله منها، ويبين ـ جل وعلا ـ أن أولئك اليهود الذين نزلت فيهم الآية [١٧٧] ، إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة فلا عليك يارسول الله منهم، ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته. ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك، أو يحولك عن موقفك [١٧٨] .

وها هي آية أخرى تحذر النبي ﷺ من أن يصده الكفار عن آيات ربه بعد إذ أنزلت إليه: {ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك} (١٧٩) .

وإن هذا التحذير لدليل على أن طريق الكفار دائماً أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل. وإن طريق المؤمنين أن يمضوا في طريقهم لا يلويهم عنها المعوقون، ولا يصدهم عنها أعداؤهم، وبين أيديهم آيات الله ـ تعالى ـ وهم عليها مؤتمنون.

ولقد كان التحذير أبلغ وأعمق حين بين القرآن جزاء رسول الله ﷺ فيما لو فتن بالكفار، واتبع آراءهم ـ وحاشاه من ذلك ـ يقول سبحانه: {إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} (١٨٠)، وقال جل وعلا: {ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين} (١٨١) .

أقول: وإذا كان هذا الخطاب وما قبله مع رسول الله ﷺ فإن على حماة الإسلام من العلماء المخلصين، والدعاة المصلحين أن يجعلوا من خطاب الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ خطاباً لهم، يوجههم، ويرشدهم إلى التنبه إلى تلك المخططات الرهيبة، والمؤامرات الحاقدة التي يقود زمامها الكفار من يهود ونصارى، وإن لهم ـ كما هو الحال في وقتنا الحاضر ـ طرقاً مختلفة، وأساليب شتى، ولكن المؤسف المخزي أن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام لا يلقي لتوجيهات القرآن وتحذيراته سمعاً أو انتباهاً {إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} (١٨٢) . ولا أدل على فتن اليهود أناساً من مدعي الإسلام عن القرآن وتوجيهاته من ذلك الاستسلام لليهود حين خرجت يرقات السلام الذليل تعلن للدنيا، وتملأ الكون هتافاً أن أهلاً (بالعصر الإسرائيلي) وأدواته، وأن عاش الذئب الصهيوني ما دام أزلام القضية قد نجحوا في ذلك الاتفاق الذليل، الذي ستتم بموجبه جز الرقاب، برعاية أعداء الله الكافرين.

يحدث هذا كله في الوقت الذي يسقط فيه كل يوم على الأرض المقدسة عشرات القتلى والجرحى من أبناء فلسطين المسلمة، كل ذلك لأن

اليهود قد فتنوا رجالاً ممن يحسبون على المسلمين، وصدوهم عن القرآن الذي يستشهدون به في المحافل الدولية، والمؤتمرات العالمية، موهمين السذج من الناس أنهم يعملون بالقرآن، وكذبوا لعمر الله، فإنهم لو خضعوا صادقين لتحذيرات القرآن لما أقسموا بأن يمضوا إلى نهاية الطريق الموحش، حتى أنبتوا لنا غابة من هتافة التهريج، ومروجي التطبيع الذين خلت لهم الساحة، فأطلقوا العنان لألسنتهم الجبانة وأقلامهم المأجورة، وضمائرهم التي طالما تقلبت في ولاءاتها في سوق النخاسة!

إن هذه الحادثة المخزية قد أفضت مضاجع الغيورين من أبناء هذا الدين، فصاحوا بأعلى أصواتهم أنه لا يجوز بيع شبر واحد من أرض المسلمين، ولكن – للأسف – لم يكن هنالك مستجيبون؛ لأنهم غارقون في مستنقع الذل، همهم الوحيد: إرواء النزوات، وإشباع الشهوات، حتى تحقق بذلك ما حذر الله – تعالى – منه بقوله: {واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (١٨٣) .

أو لم تنزل هذه الآية في اليهود؟!

لقد نسي كثير من الأمة هذا كله، فكان نتيجة ذلك أن حل بالأمة الوبال والخسران، ومارس اليهود بذلك على المسلمين جريمة الاستغفال والاستذلال، تلك الجريمة التي قادتها مجموعات وقوى معينة تسعى إلى تمكين الاختراق الصهيوني من عمقنا الجغرافي والشعبي، وبدا واضحاً أن هذه القوى التي تطبعت تريد أن ترى سواد الأمة قد تطبع، فإلى الله المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

إن هذه اللعبة ليست هي الوحيدة من نوعها، فهناك مؤامرات أخر لا تقل أهمية عن آنفة الذكر، حيث لا زالت الصحوة الإسلامية تواجه أنواعاً من مكائد أعداء الدين، للصد عن دين الله القويم، وكتابه المبين، وصراط المستقيم، ولهذا كان الواجب على الدعاة والمصلحين من أبناء هذه الصحوة

أن يقفوا صامدين ضد تلك المؤامرات، ويحـذروا المسـلمين منـها بـإعلامهم أن هؤلاء الأعداء ما أرادوا بمؤامراتم تلك إلا أن يشـغلوا الأمـة الإسـلامية عـن مهمتها في الدعوة، ومهمتها الكبرى في تربيـة الجيـل المـؤمن المجاهـد الـواعي، الذي هو الخطر الحقيقي الذي يخشونه ويحذرونه [١٨٤] .

ولا بد للأمة المسلمة أن تستيقظ من رقدتنا، وتنهض مـن سـباتنا، فتتخـذ من كتاب ربنا نبراساً تتـدي بنـوره، وتستضـيء، وإن لهـا في رسـول الله ﷺ قدوة حسنة، ومثلاً أعلى، فقد حاول أعداؤه فتنتـه عـن دينـه ودعوتـه بشـتى الوسائل والطرق، ولكنه لما كان معتصماً بكتـاب ربـه ـ تعـالى ـ فقـد ثبتـه ربه، وكان هذا التثبيت مانعاً لـه ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ مـن الركـون إليهم. وأكرمه الله ـ عز وجل ـ عندما تولى الـدفاع عنـه في كتابـه الكـريم، حيث كانت الآيات تنـزل عليه تباعاً، "فما من شبهة أثارهـا أعـداء الله ـ تعـالى ـ إلا فندها، وما من تهمة ألصقوها به إلا دفعها، ومـا مـن مـؤامرة دبروهـا إلا كشفها، وما من أسئلة تعجيزية إلا دحضها، ومـا مـن مكيـدة حبكوهـا لفتنـه إلا أحبطها" [١٨٥] . أو لم نسمع قول الله ـ عـز وجـل ـ: {ولـولا فضـل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منـهم أن يضـلوك ومـا يضـلون إلا أنفسـهم ومـا يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتـاب والحكمـة وعلمـك مـا لم تكـن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً} [١٨٦] .

ففي هذه الآية بيـان بعصـمة الـنبي ﷺ مـن الانسـياق وراء المتـآمرين المبيتين، حيث أطلعه ـ سبحانه ـ على مـؤامراتم الـتي يسـتخفون بـا مـن الناس، ولا يستخفون با من الله، وهـو معهـم، إذ يبيتـون مـالا يرضـى مـن القول، وكان ـ سبحانه ـ يتولاه بفضله ورحمته في كـل مـرة، وإن ذلـك لهـو الفضل الكبير الذي يتضمن النعمة بالعمـل، وهـو التوفيـق لفعـل مـا يجـب، والعصمة لـه عن كل محرم [١٨٧] .

ولنعلم جميعاً أن هؤلاء الكفار ما حرصوا على محاولـة إبطـال الآيـات إلا لما يعلمونـه مـن تأثيرهـا علـى القلـ ـوب: {والـذين يسـعون في آياتنـا

معاجزين} (١٨٨) ، {وقال الذين كفروا لا تسـمعوا لهـذا القـرآن والغـوا فيـه لعلكم تغلبون} (١٨٩) .

هكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تفو إلى هـذا القـرآن العظـيم فتغلبـهم، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يهدّد زعامتهم لو اطلـع علـيهم النـاس وهـم مأخوذون شبه مسحورين.

وإن في القرآن من التـأثير العظـيم لمـا يصـل القلـب مباشـرة بـالنبع الأصيل، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار، وأن يصـد عنـه تـدفق التيـار. وإن فيه من مشاهد القيامة ومن القصـص ومـن مشـاهد الكـون الناطقـة، ومـن مصادر الغابرين، ومن قوة التشخيص والتمثيل لما يهـز القلـوب هـزاً لا تمالـك معه قراراً (١٩٠) .

المبحث التاسع : الاعتراض على النسخ

النسخ في القرآن الكريم هو رفع الحكم الشـرعي بـدليل شـرعي (١٩١) ، وهذا مما اعترض عليه المشركون ووقفوا ضده، وهو يمثل مـوقفهم مـن القـرآن يقول ـ سبحانه ـ: {وإذا بدلنا آية مكان آيـة والله أعلـم بمـا ينـزل قـالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون} (١٩٢) .

يقول ابن جرير: "يقـول ـ تعـالى ذكـره ـ: وإذا نسـخنا حكـم آيـة فأبدلنا مكانه حكم أخرى والله أعلم بما يـنـزل، يقـول: والله أعلـم بالـذي هـو أصلح لخلقه بما يبدل ويغير من أحكامه، قالوا إنمـا أنـت مفتـر، يقـول: قـال المشركون بالله المكذبون رسوله لرسـوله ﷺ : إنمـا أنـت يـا محمـد مفتـر أي مكذب تخرص بتقول الباطل على الله، يقول الله ـ تعـالى ـ بـل أكثـر هـؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر، جُهال بأن الذي تـأتيهم بـه مـن عنـد الله ناسخه ومنسوخه لا يعلمون حقيقة صحته. (١٩٣)

وفي قولـه ـ سبحانه ـ {والله أعلم بما ينـزل} عدة فوائد:

١. الجواب على سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل، وما فائدته؟

٢. أن الذي يُبدل ويأتي بغيره هو المنزل بحكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

٣. أن مصدر الأمرين عن علمه ـ تبارك وتعالى ـ وأن كلاً منهما منزل، فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني (١٩٤).

وهذه الآية الكريمة من أدلة النسخ السمعية، ووجه الدلالة من الآية أن التبديل يتألف من رفع الأصل وإثبات البدل، وذلك هو النسخ سواء كان المرفوع تلاوة أو حكماً (١٩٥).

*** وقد أنكرت اليهود وطائفة من الصوفيين وغيرهم النسخ في القرآن لأنه يستلزم البَداء، وهذا باطل جملة وتفصيلاً، لأن النسخ غير البداء، وبيان ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالى ـ عالم بما فرض وبرفع ذلك الفرض وإزالة حكمه، وانقضاء زمن تلك العبادة، ووقت الفرض الناسخ للفرض الأول، فهو تعالى علام الغيوب، ليس علم شيء عنه بمحجوب، يعلم ـ سبحانه ـ عواقب الأمور، وكل شيء عنده في كتاب مسطور كما قال ـ سبحانه ـ {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير} (١٩٦)، {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} (١٩٧)، {الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار} (١٩٨).**

وهذا كله بخلاف البداء فإنه من أوصاف أفعال المخلوقين الذين لا يعلمون عواقب الأمور كقول القائل: أفعل كذا ثم يظهر له بعد الأمر به والعزم عليه خلافه، ويظهر له أن تركه أولى من فعله، وهذا مستحيل على الله ـ تعالى ـ لما يترتب عليه من سبق الجهل وحدوث العلم، والجهل والحدوث عليه محالان، لأن النظر الصحيح في هذا العالم دلنا على أن خالقه

ومدبره متصف أزلاً وأبداً بالعلم الواسع المطلق، المحيط بكل ما كان وما سيكون، وما هو كائن كما تقدم ذلك آنفاً، ولو تأمل مَنْ أنكر النسخ في القرآن ما ذُكر من الفرق بين النسخ والبَداء لرجع عن معتقده الفاسد [١٩٩]**، نعوذ بالله ـ تعالى ـ من الضلالة بعد الهدى، ونسأله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.**

الحواشي والتعليقات

(١) البقرة (٢٨٥).

(٢) "جامع البيان" (١٥١/٣)

(٣) "مستدرك الحاكم" (٣١٥/٢) وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: منقطع.

(٤) قال في الدر المنثور (١٣٣/٢) أخرجه ابن جرير وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم.

(٥) "أنوار التنزيل" (٥٨٥/١).

(٦) الأنعام (٩٢).

(٧) انظر "تفسير القرآن العظيم" (١٥٨/٢) و"أنوار التنزيل" (٤٣٠/٢).

(٨) انظر "جامع البيان" (٢٧١/٧).

(٩) البقرة (٢ـ ٤).

(١٠) البقرة (١٣٦).

(١١) البقرة (٢٨٥).

(١٢) الكهف (١).

(١٣) الفرقان (١).

(١٤) مجموع الفتاوى (٨/١٢).

(١٥) انظر "جامع البيان" (١٨١/١)، و"تفسير القرآن العظيم" (٣٤٥/١)، و"فتح الباري" (٢١١/٨)، و"الموافقات في أصول الشريعة" للشاطبي (٦٨/٣).

(١٦) المؤمنون (١٠١).

(١٧) الطور (٢٥).

(١٨) انظر "مناهل العرفان" للزرقاني (١٩٨/٢).

(١٩) النساء (١٦٢).

(٢٠) (٣٩٢/١٧، ٣٩٣).

(٢١) "مجموع الفتاوى" (٣٩٢/١٧، ٣٩٣).

(٢٢) "الشريعة" للآجري ص٧٣.

(٢٣) ذكره شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٣٩٤/١٧) وقـال: رواه إبـراهيم بـن يعقـوب الجوزجاني.

(٢٤) أخرجه البخاري (٩٧٤/٢) برقم (٢٥٨١).

(٢٥) الأدغام (٨٢).

(٢٦) أخرجه البخاري (١٢٢٦/٣) برقم (٣١٨١)، ومسلم (١١٤/١) برقم (١٢٤).

(٢٧) البقرة (٢٨٤).
(٢٨) أخرجه مسلم (١١٥/١) برقم (١٢٥).
(٢٩) الانشقاق (٨).
(٣٠) أخرجه البخاري (٥١/١) برقم (١٠٣).
(٣١) أخرجه الطبري (٦٥/١).
(٣٢) أخرجه بنحوه الحاكم في مستدركه (٧٤٣/١) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٣٣) انظر "مجموع الفتاوى" (٣٩٥/١٧ ـ ٣٩٩).
(٣٤) الحديد (١٦).
(٣٥) الإسراء (١٠٧ ـ ١٠٩).
(٣٦) (١٨٢/١٥).
(٣٧) "انظر الظلال" (٢٢٥٤/٤).
(٣٨) مريم (٨٥).
(٣٩) "جامع البيان" (٩٧/١٦).
(٤٠) الزمر (٢٣).
(٤١) "تفسير القرآن العظيم" (٥٢/٤).
(٤٢) الفرقان (٧٣).
(٤٣) "جامع البيان" (٥١/١٩).
(٤٤) انظر "تفسير القرآن العظيم" (٣٣٠/٣).
(٤٥) انظر "إرشاد العقل السليم" (٢٣١/٦).
(٤٦) هو عبدالله بن شداد بن الهاد الليثي الفقيه، أبو الوليد المدني ثم الكوفي، روى عن أبيه ومعاذ بن جبل وجماعة، وتوفي في قتاله مع ابن الأشعث سنة اثنتين وثمانين انظر: "سير أعلام النبلاء" (٤٨٩/٣).
(٤٧) "أحكام القرآن" لابن العربي "٣٧/٢).
(٤٨) انظر "الإتقان" للسيوطي (٢٨٥/١).
(٤٩) "جامع البيان" (١٧٨/٩).
(٥٠) الأنفال (٢).
(٥١) التوبة (١٢٤).
(٥٢) النحل (٧٩) والنمل (٨٦).
(٥٣) الحجر (٧٧).
(٥٤) الظلال.
(٥٥) "شرح العقيدة الطحاوية" (٣٣٤/١).

(٥٦) "مجموع الفتاوى" (١٥١/٣).
(٥٧) المرجع السابق (٢٢٨/٧).
(٥٨) التوبة (١٢٤).
(٥٩) "جامع البيان" (٧٢/١١).
(٦٠) النحل (٣٠).
(٦١) انظر "تفسير التحرير والتنوير" (٣٧٠/٧).
(٦٢) المرجع السابق، ولم أقف على مكانه في كتاب الرازي آنف الذكر.
(٦٣) النحل (٢٤).
(٦٤) انظر "الجامع لأحكام القرآن" (١٠٠/١٠)، و"البرهان في علوم القرآن" (٢٠٧/٣).
(٦٥) ص (٢٩).
(٦٦) اقتضاء العلم العمل ص٧٠.
(٦٧) المرجع السابق.
(٦٨) أخرجه بذا اللفظ الخطيب البغدادي في "اقتضاء العلم العمل" ص٦٩، ٧٠.
(٦٩) الأنفال (٤١).
(٧٠) الأنفال (١).
(٧١) الظلال (١٥٢٠/٣).
(٧٢) النساء (١٠٥).
(٧٣) المائدة (٤٩ ـ ٥٠).
(٧٤) ص (٢٦).
(٧٥) الأنعام (٥٠).
(٧٦) المائدة (٤٤).
(٧٧) المائدة (٤٥).
(٧٨) المائدة (٤٧).
(٧٩) البخاري (٤٨) ومسلم (٦٤).
(٨٠) انظر "فتنة التكفير" إعداد علي بن حسين أبي لوز ص٤٦.
(٨١) الحج (٧٢).
(٨٢) البقرة (٢٠٦).
(٨٣) أسد الغابة (٢٨١/٣، ٢٨٢).
(٨٤) الظلال (٢٤٤٣/٤)، وانظر "جامع البيان" (٢٠١/١٧).
(٨٥) ص (٦ ـ ٨).

(٨٦) انظر "جامع البيان" (١٢٨/٢٣) و"روح المعاني" (١٦٨/٢٣).

(٨٧) الحج (٥٥).

(٨٨) الحج (٥٤).

(٨٩) "جامع البيان" (١٢٨/٢٣).

(٩٠) الحج (٥٦، ٥٧).

(٩١) البقرة (٢).

(٩٢) انظر "أنوار الت يل" (٩٦/١).

(٩٣) البقرة (٢٣ـ ٢٤).

(٩٤) الظلال (٤٢/١، ٤٣).

(٩٥) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٧).

(٩٦) المدثر (١١ـ ٣٠).

(٩٧) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٣٠٩).

(٩٨) انظر "الظلال" (٣٧٥٦/٦، ٣٧٥٧).

(٩٩) سبأ (٤٣).

(١٠٠) الصافات (١٥).

(١٠١) النمل (١٢ـ ١٤).

(١٠٢) القصص (٣٦).

(١٠٣) "تفسير القرآن العظيم" (١٢٨/٢).

(١٠٤) القلم (١٠ـ ١٥).

(١٠٥) "معالم الت يل" (٣٧٨/٤).

(١٠٦) المطففين (١٠ـ ١٤).

(١٠٧) انظر "أنوار الت يل" (٥٧٨/٢).

(١٠٨) (٤٣٤/٥).

(١٠٩) صحيح سنن الترمذي.

(١١٠) المطففين (٦).

(١١١) النمل (٦٧ـ ٦٨).

(١١٢) "جامع البيان" (١٠/١٠).

(١١٣) المؤمنون (٨١ـ ٨٣).

(١١٤) الأحقاف (١٦ـ ١٧).

(١١٥) الأنفال (٣١).

(١١٦) "إرشاد العقل السليم" (١٩/٤).

(١١٧) الأنعام (٢٥).

(١١٨) الفرقان (٥).

(١١٩) الفرقان (٥).

(١٢٠) انظر "أنوار التنزيل" (٢٠٦/٤).

(١٢١) النحل (٢٢ـ ٢٤).

(١٢٢) النحل (٢٤).

(١٢٣) النحل (٢٥).

(١٢٤) النجم (٥٩ـ ٦٢).

(١٢٥) "جامع البيان" (٨٢/٢٧) وانظر "إرشاد العقل السليم" (١٩٦/٨).

(١٢٦) الأنبياء (٣/٢).

(١٢٧) "أنوار التنزيل" (٨٢/٤) و"روح المعاني" (٧/١٧).

(١٢٨) يونس (١٥ـ ١٦).

(١٢٩) انظر " تفسير القرآن العظيم". (٤١١/٢) و"جامع البيان" (٩٤/١١). و"أنوار التنزيل" (١٨٩/٣).

(١٣٠) مريم (٧٣).

(١٣١) مريم (٧٤).

(١٣٢) أنوار التنزيل (٣٨/٢).

(١٣٣) الإسراء (٨٩ـ ٩٣).

(١٣٤) الظلال (٢٢٥٠/٤).

(١٣٥) القصص (٤٨ـ ٤٩).

(١٣٦) انظر "تفسير القرآن العظيم" (٣٩٣/٣).

(١٣٧) القصص (٥٠).

(١٣٨) الأنعام (٥).

(١٣٩) ق (٥).

(١٤٠) الأنفال (٣٢).

(١٤١) ص ٨٠، ٨١ "التبيان في أقسام القرآن" ص٨٠، ٨١.

(١٤٢) الجاثية (٦).

(١٤٣) محمد (٢٢).

(١٤٤) ق (٥).

(١٤٥) النحل (١٠٣).
(١٤٦) النحل (١٠٢).
(١٤٧) الأنعام (١٠٥).
(١٤٨) الدخان (١٤).
(١٤٩) الفرقان (٤).
(١٥٠) الشعراء (٢١٠).
(١٥١) الجن (٨).
(١٥٢) انظر "روح المعاني" (١٥٤/١٩).
(١٥٣) الزمر (٣٢).
(١٥٤) "تفسير القرآن العظيم" (٥٤/٤).
(١٥٥) الأنعام (٢٧ ـ ٢٨).
(١٥٦) الواقعة (٩٢ ـ ٩٤).
(١٥٧) الروم (١٦).
(١٥٨) غافر (٦٩ ـ ٧٢).
(١٥٩) المائدة (١٠٤).
(١٦٠) لقمان (٢١).
(١٦١) الفرقان (٣٠).
(١٦٢) الفوائد ٨٢.
(١٦٣) المرجع السابق.
(١٦٤) البقرة (١٣).
(١٦٥) "مدارج السالكين" (٣٤٨/١، ٣٥٠).
(١٦٦) انظر "الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن" للمؤلف.
(١٦٧) راجع هذه الأقوال مجتمعة في كتاب: "قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله" للأستاذ جلال العالم ص٥٩، ٦٠، ٦١.
(١٦٨) الإسراء (٧٣ ـ ٧٤).
(١٦٩) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن سعيد بن جبير (١١٨/٨) برقم (٢٢٥٣٦).
(١٧٠) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (٣٥٢/٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٤٩/٩).
(١٧١) أخرجه ابن جرير (١١٩/٨) برقم (٢٢٥٣٨). وهو في زاد المسير (٥٠/٥) وتفسير القرطبي (١٤٩/٥).
(١٧٢) تفسير الطبري (١٢٠/٨).

(١٧٣) انظر الظلال (٤/ ٢٢٤٥).

(١٧٤) انظر هذه الفوائد في تفسير الشيخ السعدي (٤/٣٠٥ـ ٣٠٦).

(١٧٥) المائدة (٤٩).

(١٧٦) المائدة (٤٨).

(١٧٧) راجع سبب النزول في تفسير الطبري (٤/٦١٤) برقم (١٢٥٦).

(١٧٨) الظلال (٢/٩٠٤).

(١٧٩) القصص (٨٧).

(١٨٠) الإسراء (٧٥)، والآية جواب شرط مقدر، أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركنة لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وهما عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. انظـر تفسـير أبي السـعود (٥/١٨٨).

(١٨١) يونس (٩٥).

(١٨٢) الفرقان (٤٤).

(١٨٣) المائدة (٤٩).

(١٨٤) انظر "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" تأليف الأستاذ الداعية محمد قطب ص٢٤٥، ٢٤٨.

(١٨٥) "منهج القرآن في تثبيت الرسول ﷺ " رسالة ماجستير تقدم بها عبدالرحمن هوساوي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٢هـ ص١٢٠، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة.

(١٨٦) النساء (١١٣).

(١٨٧) انظر الظلال (٢/٧٥٦) وتفسير السعدي (٢/١٦١).

(١٨٨) سبأ (٣٨).

(١٨٩) فصلت (٢٦).

(١٩٠) انظر الظلال (٥/٣١٢٠).

(١٩١) "مناهل العرفان" للزرقاني (٢/١٢٧).

(١٩٢) النحل (١٠١).

(١٩٣) "جامع البيان" (١٤/١٧٦) وانظر "الناسخ والمنسوخ للمقري" (١/٢٩).

(١٩٤) "التبيان في أقسام القرآن" ص١٤٠.

(١٩٥) "مناهل العرفان" ٢/١٣٩.

(١٩٦) التغابن (١١).

(١٩٧) الأنعام (٥٩).

(١٩٨) الرعد (٨ ـ ١٠).

(١٩٩) انظر "الناسخ والمنسوخ" للكرمي (١/٤٣، ٤٤) و"مناهل العرفان" (٢/١٣٠).

المراجع

* الإتقان في علوم القرآن، السيوطي.
* أحكام القرآن، ابن العربي.
* إرشاد العقل السليم، أبو السعود.
* أنوار التنزيل، البيضاوي.
* البرهان في علوم القرآن، الزركشي.
* التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم.
* تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور.
* تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.
* جامع البيان، ابن جرير الطبري.
* الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.
* الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي.
* روح المعاني، الألوسي.
* رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب.
* الشريعة، الآجري.
* فتح الباري، ابن حجر.
* الفوائد، ابن القيم.
* في ظلال القرآن، سيد قطب.
* قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم.
* مجموع الفتاوى، ابن تيمية.
* المستدرك، الحاكم النيسابوري.
* معالم التنزيل، البغوي.
* مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني.

* **الموافقات** في **أصول الشريعة، الشاطبي.**
* **الناسخ والمنسوخ، الكرمي.**
* **الناسخ والمنسوخ، المقري.**